من اجـل فكـرة مغايـرة للمنفـى / خوليو كورتازار

لانني لا اتوفر على اية كفاءة تحليلية ، فساقتصر هنا على رؤية جد شخصية للمشاكل التي يطرحها المنفى وادب المنفى .

ان المنفى ـ كواقع حقيقي وموضوع ادبي ـ يهيمن حاليا على الساحة الادبية الامريكية ـ اللاتينية . واذا كان منفيو نيكاراغوا قد اخذوا طريق العودة الى بلادهم في اللحظة التي اكتب فيها هذه السطور ، فان منفيي الارجنتين والشيلي والاوروغواي ـ دون الحديث عن غيرهـم ـ يعلمون ان عودتهم بعيدة عن ان تكون فورية . فالانظمة الديكتاتورية في بلدانهم ما زالت صلبة ، مدعمة على امتداد السنوات ، من طرف تواطؤات ومصالح من كل شكل ونوع ، وكذا عن طريق الاهمال الدولي ، وطريق ذلك الجزء من شعوبها انفسهم الذي يجهل الواقع العميق لبلاده ، أو اسوا من ذلك ، يتقبله خوفا او لشراء ذمته . وحين وصل منفيو الشيلي الاوائل الى باريس ، راهن الكثيرون منهم على تغيير قريب المدى ، وكان التضامن الدولي مع شعب الشيلي مهما واتاح بعضا من تفاؤل لم تدعمه الوقائع التي جاءت فيما بعد . الا ان منفيي الاوروغواي والارجنتين كانوا دائما اقل ثقة في عودة مقبلة ، لذلك ينبغي ملاحظة ان فترات النفي في السنوات العشـر الاخيرة قد امتدت الى اجل غير مسمى .

وانا الآن واحد من هذه « الدياسبورا » التي لا يمكن احصاء اعضائها الفرق هو ان منفاي لم يصبح على هذا الشكل الا منذ بضع سنوات : حين غادرت الارجنتين سنة 1951 ، كان ذلك بمحض ارادتي ، ودون ضغط سياسي او ايديولوجي . كذلك كان بمقدوري ، ولازيد من عشرين سنة ، ان ازور بلدي باستمرار ، ولم اجدني مضطرا للنظر الى نفسي كمنفي الا منذ سنة 1974 .

غير ان ثمة ما هو اكثر واسوا من كل ذلك : فللنفي الجسدي أضيف ، ومنذ سنتين ، نفي ثقافي اقسى من الاول بما لا يقاس بالنسبة لكاتب يعمل في علاقة حميمة مع وسطه الوطني واللسني . وفعلا ، فقد منعت الطغمة العسكرية بالارجنتين نشر مجموعتي القصصية الاخيرة ، التي لم تبد استعدادها للترخيص لها بالنشر الا اذا تنازلت وقبلت حذف قصتيـن اعتبرتهمـا خطيرتين عليها ، او على نظام القمع والاستلاب الذي تمثله .. احد هذين النصين يشير بطريقة غير مباشرة الى الاختفاء الجسدي للاشخاص فوق التراب الارجنتيني ، والاخر يدور حول تحطيم المجموعة المسيحية للشاعر النيكاراغوي ارنيستو كاردينال فوق جزيرة « سولينتينامي » .

فبامكاني اليوم اذن الاحساس بالمنفى من الداخل ، اي على نقيض ذلك ، من الخارج . حين اتيح لي في الماضي ان اشارك في الدفاع عن ضحايا احدى ديكتاتوريات قارتنا ، لم يخطر ببالي قط وضع نفسي في نفس المستوى الذي يوجدون فيه ، ما دمت لم اعتبر قط بعدي عـن الوطن نفيا ، بل ولا حتى نفيا ذاتيا . فمفهوم المنفى بالنسبة لي يتضمن الارغام ، والعنف في كثير من الاحيان ، فالمنفي كان دائما ، وعلى وجه التقريب ، شخصا مطرودا ، ولم تكن هذه حالتي . وهنا اود توضيح انني لم اكن عرضة لاي اجراء رسمي بهذا المعنى ، ومن المحتمل جدا ، اذا رغبت في السفر الى الارجنتين ، انه سيكون بامكاني الدخول اليها بدون صعوبات ، الا ان الشيء الذي سوف لن استطيعه قط ودون شك ، هو الخروج منها . وستنفي الطغمة العسكرية ، بطبيعة الحال، كل مسؤولية لها فيما قد يحدث لي ، ونحن نعرف جيدا بان الناس يختفون دون ان يعرف عنهم رسميا اي شيء .

وبما انني كاتب ، فمن منفى المثقفين اتحدث هنا . ليس قصدي اجراء تشخيص للوضعية ، بقدر ما هو الشروع في تشخيص ذاتي . ليس هدفي التحسر على واقع هذا المنفى الذي ليس هناك ادعي للحسرة منه ، بل البحث عن جواب ايجابي للابادة الثقافية الجماعية التي تتفاقم يوما عن يوم في بلداننا الخاضعة لتسلط حكام من نوع فيديلا ، بينوتشي ، ستربسنير وغيرهم . حتى وان كان من المحتمل ان ابدو طوباويا فساقول ما يلي : انني مقتنع باننا نحن الكتاب المنفيين نمتلك وسائل تجاوز التمزق والاستئصال الذي تفرضه علينا هذه الانظمة ، وبامكاننا الرد بطريقتنا على الضربات التي يوجهها لنا كل نفي جديد ، الا انه ينبغي ، لاجل ذلك ، تجاوز بعض المفاهيم ذات الاصل الرومانسي والانسانوي ، اي المغلوط تاريخيا ، ومواجهة وضع المنفى

بعبارات تتجاوز جانبه السطحي ، القدري والرهيب احيانا ، والمنمذج والمعتم في اغلب الاحوال.

بديهي ان كل نفي يثير صدمة . فالكاتب المنفي هو ، بالمقام الاول ، امراة أو رجل منفي، كائن يعرف انه مسلوب من كل ما كان يملك ، ومفصول في الغالب عن عائلته ، او .. في احسن الاحوال ، مجتث عن طريقة عيش معينة ، عن عطر هواء وعن لون سماء ، عن منازل وازقة ملونة، عن خزانة وكلب ، عن مقاهي بها الاصدقاء والكتب ، عن الموسيقى وعن فسح وسط المدينة . ان المنفي اغصان مقطوعة ، وجذور محرومة من الهواء والتراب الطبيعيين بالنسبة لها : انه مثل النهاية المفاجئة لحب ما ، مثل موت لا يمكن تصور رعبه حيث اننا نستمر في عيشه واعين به .

هذه الصدمة تجعل عددا معينا من الكتاب يغوصون في نوع من ظل الفعل والابداع يحد ويفقر ، بل ويعدم احيانا عملهم . والملاحظة ساخرة إلى حد الحزن : فالحالة موجودة لدى الكتاب الشبان اكثر منها لدى المتمرسين ، ومن هنا تصل الفيكتاتوريات ، انجع وصول ، الى غايتها المتمثلة في هدم الفكر والابداع الحرين والمناضلين . هكذا رايت اختفاء العديد من النجوم الفنية في سماوات اجنبية ، وان ما يمكن تسميته بالنفي الداخلي لافدح من سابقه : اذ يسحق القمع والرقابة والخوف في بلداننا ، وبدون رجمة ، الكثير من المواهب الفنية التي كانت اعمالها الاولى واعدة . ففي الفترة المتراوحة بين 1955 و 1970 ، توصلت بكمية من كتب ومخطوطات كتاب ارجنتينيين جدد ملاتني أملا . الا انني الآن لم أعد اعرف أي شيء عنهم ، وخاصة منهم اولئك الذين يعيشون بالارجنتين . الامر الذي لا يعود قط الى السيرورة المحتومة الاصطفاء والتصفية بين مختلف الاجيـال .

ملاحظة ثانية حزينة في سخريتها : الكتاب المنفيون ـ شبانا كانوا ام متمرسين ـ هم ، على العموم ، اخصب من اولئك الذين يعانون من ضغط الظروف داخل بلدهم . اقلية ضئيلة من المنفيين تسقط في الصمت ، احيانا لضرورة اعادة التكيف مع شروط حياة ونماليات مختلفة تحولهم عن الادب كانشغال اساسي . أما ردود افعال الاخرين ، الذين يستمرون في الكتابة ، فمختلفة : بعضهم بنهجه طريقة تكاد تكون بروستية ، يتخذ المنفى نقطة انطلاق لبحث حقيقي عن الوطن الضائع ، والبعض الاخر يكرس اعماله لاعادة اكتشاف الوطن ، ويدمج مجهوده الادبي في النضال السياسي ، ورغم الاختلاف الجوهري فمن الممكن ادراك تشابه بين الموقفين : اذ ينظر هؤلاء واولئك الى النفي بوصفه لا قيمة ، خرقا ، وبترا من اللائق القيام تجاهه برد فعل . ولم تتح لي الى اليوم قراءة الكثير من النصوص الامريكية ـ اللاتينية تخضع فيها وضعية النفي المتميزة لنقد داخلي يلغيها من حيث هي قمية سلبية وينقلها الى ميدان ايجابي . فالمثقفون الذين كان من اللازم ان يمثل التأمل والتحليل بالنسبة لهم عملية من نوع خاص ، لا يبدو قط منهم ميل الى تطبيقها على وضعيتهم كمنفيين . من الصعب تبرير هذا الموقف ـ الذي يتفهمه آخرون بما فيه الكفاية ـ أي اولئك الذين يملكون امكانيات تجاوز هذه المرحلة الاولى الاليمة والسلبية ، ووضع انفسهم تحت شارة اخرى هي غير تلك التي يفرضها عليهم العدو .

وان تجاوز هذه المرحلة السلبية ليس مجرد امكانية ، بالنسبة للمثقفين ، وحسب ، وانما هو واجب . فقبول قاعدة اللعب المفروضة من طرف الخصم معناه التنازل له عن انتصار مزدوج : التخلص من الحضور الجسدي للمعارضين ، وابادتهم على الصعيد الفكري في عملهم كفنانين ، وعلمـاء وكـتـاب .

لكن : اذا قرر المنفيون بدورهم اعتبار منفاهم ايجابيا ؟ مع كامل علمي بانني على اهبة انحدار خطير نحو التناقض ـ اعتقد بان اختيارا من هذا النوع يطابق وعيا بالواقع مقبولا تماما . لهذا اوجه هذا النداء للقيام بتباعد عاجل ، يستند ، من بين ما يستند عليه ، الى روح النكتة، هذه النكتة التي اتاحت ، على مر التاريخ ، نقل افكار وممارسة كانا سيبحوان ، بدونها ، جنونا او هـذيـانـا .

وهنا اعود مرة اخرى الى تجربتي الشخصية : فلم يكن منفاي الثقافي الحديث العهد ـ والذي قطع الصلات تماما بيني وبين مواطني بلدي ، قراء وناقدين ـ بالنسبة لي صدمة سلبية ، اذا كان اولئك الذين اغلقوا في وجهي ابواب وطني يعتقدون انهم قد اكملوا نفيي ، فانهم مخطئون على طول الخط . إذ انهم اعطوني ، في الواقع منحة لوقت غير محدود ، اتفرغ فيها لعملي اكثر من اي وقت مضى ، ذلك ان رد فعلي تجاه هذه الفاشية الثقافية كان وسيظل هو مضاعفة جهودي

الى جانب كل اولئك الذين يناضلون من اجل تحرير بلدي . منفيون ، نعم . نقطة . كتاب منفيون ، بالتاكيد ، لكن بالتشديد على كلمة « كتاب » .

لن دكتاتوريات امريكا اللاتينية لا تملك كتابا ، بل مجرد نساخ وحسب : فلا نتحول نحن الى نساخ للمرارة ، للحقد ، للسوداوية . وضد الشفقة الذاتية ، من الافضل الادعاء — حتى وان بدا الامر ضربا من العته — بان المنفي الحقيقي هو الانظمة الفاشية لقارتنا ، لانها منفية عن الواقع الحقيقي لبلدها ، عن العدالة الاجتماعية ، وعن الفرح والسلام .

وفيما يتعلق بالعته ، فانه يمثل — مثله في ذلك مثل النكتة — طريقة لتفجير النماذج المتحجرة وفتح طريق ايجابي ، يتعذر علينا ايجاده اذا ما واصلنا خضوعنا لقواعد لعبة العدو الجامدة والحصيفة . ان « مجنون » هاملت قد انتهى بالانتصار على النظام الاستبدادي الذي كان يخنق الدانمارك : فلنتذكر هذا الواقع .

ان هذا النوع من الهجوم الثقافي يتطلب خيالا ، واختراعا ، ونكتة بل وحتى تظاهرا بالجنون الا انه ناجح بصورة مزدوجة : فاذا كان عمل المنفيين الثقافي يشق لنفسه طريقا في بلداننا (وهو امر ممكن دوما ، حتى وان لم يمس سوى اقليات من خلال شبكات خاصة) ، فان له تاثيرا كذلك في البلدان المضيفة ، ويساهم في تطوير التضامن مع قضيتنا في هذه البلدان .

الا انه ينبغي علينا — لاجل تحقيق ذلك — قطع الصلات مع القائمة المالوفة لمصطلحات المنفي والشروع في عودة الى ذواتنا انفسها ، حيث يرى كل واحد منا الى نفسه من جديد ، وحيث يرى نفسه جديدا ، فالوعي بالواقع الذي تحدثت عنه لن يكون ممكنا الا بعد انجاز نقد ذاتي ينزع عنا ، وبالمرة ، الحجب التي تعمينا .

سيسلم كل كاتب شريف بان الاستئصال يؤدي الى اعادة النظر هذه في الذات . وبسبب اضطرار وعنف هذه الاعادة فان لها نفس تاثيرات « السفر الى اوروبا » الشهير الذي قام به اجدادنا وآباؤنا . اكيد ان الامر كان ينطلق باختيار طوعي وممتع — كان هو سراب اوروبا كحافز للقوى والمواهب التي لا تزال جنينية . وكان السفر الذي يقود شيليا او ارجنتينيا الى باريس او روما او لندن سفرا تدريبيا ، حيث يبدا يتم الرفع الى مرتبة فارس ، والاقتراب من اثناء « غرال » المقدس للمعرفة الغربية . من حسن الحظ اننا بدانا نغلت اكثر فاكثر من موقف المستعمرين (بفتح الميم) عقليا الذي كان ممكنا تبريره في ازمنة اخرى ، الا ان كلية الحضور الثقافية التي تهبها وسائل الاعلام او بعض وسائل الاعلام السميدة تجعل الامر مخلوطا تاريخيا ، ومع ذلك ، فما زال هناك شبه بين السفر الثقافي الممتع في القديم ، وبين الطرد العنيف للمنفي: وهو بالضبط هذه الامكانية لاعادة النظر في انفسنا ، بوصفنا كتابا مقتلعين من وسطنا .

لم يعد الامر متعلقا بالتعلم من اوروبا ، بل باعتكافنا على انفسنا كافراد منتمين الى شعب امريكا اللاتينية والبحث عن السبب في خسراننا لمعاركنا ، لماذا نحن منفيون ، لماذا نعيش عيشا سيئا في بلداننا ، لماذا لا نعرف ، لا حكم انفسنا ولا الاطاحة بالحكومات الفاسدة ، لماذا هذا الميل لدينا الى تضخيم كفاءاتنا مغطين بذلك على نواحي ضعفنا وعجزنا . وان اول واجب على المثقف المنفي ينبغي ان يكون التعري امام المرآة القاسية التي هي الوحدة بفندق في الغربة ، ومحاولة النظر الى نفسه كما هو ، دون الاعتذار السهل بالمحلية او بالنقص في تعابير المقارنة .

كثيرون اولئك الذين قاموا بهذه العملية خلال السنوات الاخيرة ، واعمالهم تعكس هذا الصحو الجديد . بعضهم توقف عن الكتابة للدخول في الفعل ، البعض الآخر شرع يكتب انطلاقا من مناظير اكثر تفتحا ، انطلاقا من زوايا جديدة للرماية واكثر نجاعة ؛ وعلى العكس من ذلك ، فان اولئك الذين التزموا الصمت او تابعوا الكتابة بنفس طريقتهم السابقة ، قد اصبحوا عقماء لكثرة ما احترموا سلبية المنفى .

وطبعا فان الكتاب — وهذه مسالة لا نزداد الا تعرفا عليها — لا يملكون الا تاثيرا ضعيفا على آلة الامبريالية والارهاب الفاشي السائد عندنا . غير انه اذا كان الصحافيون الشرفاء يطلعون الجمهور الدولي ، تدريجيا ، على الوضعية (وهو امر نلاحظه في فرنسا) ، فانا علينا نحن ، كتاب امريكا اللاتينية المنفيين ، جعل هذا الاعلام محسوسا ، وهذه بتلك الضحية الفريدة التي يقدمها الخيال المركب (بكسر وتشديد الكاف) والرامز ، عبر الرواية او القصيدة او القصة القصيرة التي تجسد ما لا تستطيع التيليكسات ولا تحاليل المتخصصين تجسيده قط . من اجل

هذا تهاب ديكتاتوريات بلداننا الكتب المولودة في المنفى ، وتمنعها وتحرقها ، سواء أكانت تلك الكتب « خارجية » أم داخلية ، الا ان هذا الامر ، مثله في ذلك مثل المنفى ، يتوقف علينا نحن منحه قيمته . وان الكتاب الذي منعوه او احرقوه لنا لم يكن سوى ما قبل ـ الاخير فلنكتب آخــر افضل منه .

خوليو كورتازار

✱ من « الماغزين ليتيرير » العدد 151 ـ 152 (الخاص بادب امريكا اللاتينية) .

✱ نقل النص الى العربية قبال المعطي .

● الكــاتــب مثقفــا / جــان ثــيــبــودو

الادب شيء ، والكتاب شيء آخر ، فليس الكتاب هم الذين يصنعون الادب ، وانمــا التاريخ هو الذي يقوم بهذا ، وذلك بحيث يصير الادب هو الذي يصنع الكتاب . فانــا عند ما أشرع في الكتابة لا املك كبير اختيار اذ يجب ان انطلق مما هو موجود ، من طرق الكتابة ووسائل النشر ، وان اتدبر امري بناء على هذا ، وفي الفترة الحالية في الغرب نجد ان الكتاب الذين يسمون بالمحدثين هم اولئك الذين يبدعون عملا اصيلا ، ليس بمعنى انه قد لا يشبه أي عمل آخر ، ولكن بمعنى ان الكاتب يبني مجموعة من القوانين او القواعد التي لا قيمة لترابطها واحكامها ودقتها المضبوطة الا بواسطة او داخل ذلك العمل .

هذا اللون من الادب ، الذي قد يكون لي مكان فيه ، هو الذي يهمني اكثر من غيره . ولكني اقتصر عليه اذ يبدو لي انه سيكون علــى ان ابحــث عند دومــا Dumas واغاتا كريستي (A. Christie) (G. de Villier) Nerval) او غيرهم . فالذي اكرهه قطعا هو الادب المتوسط . اني اظن ان هذا الادب المتوسط ليس له من هدف غير تخليد السطحية عند جمهور ضيق ، مهما كان عدده كبيرا ، لكن السطحية التــي قد تكون محتملة لو ظلت اخلاقية والتي تجب محاربتها لانها فضيحة سياسية . انها تنسخ للتشنجات الرجعية نسخا بلا نهاية . لكن الادب « الحديث » في حد ذاته لا يقدر على فعل شيء ضدها ، ذلك لانها تتغذى من اساطير لعينة : هولدرلين ، نرفال ، لوتريامــون ، رامبــو آرطو ، بيــروز . كما تلتهم السير الذاتية الاسطورية لكل من بــروســت Proust او كافكا Kafka او جويس Toyce ، معنى ذلك انها ليست معزولة وليست مقصورة على اولئك الذين يتعيشون منها ، انها في الواقع في كل مكان ، في الادب وفي السياسة ، لهذا نشطت اخيرا بعض وجوه « الطليعة » في تسخين حساء « الفلاسفة الجدد » القديم ، ان هذه الطرفة المبهمة الكذابة لغنية بالعبر العظيمة ، مسكين سلين Celine ، ان صغار الروائيين وصغار الشعراء يمتصون نفس العمي الاعور الذي يمتصه الايديولوجيون المنتصرون على الطوفان . وانه لمن الممكن ان يسخن طبيخ الجثث هذا ، او على الاصح ، ان يعاد طبخه من جديد ولمدة طويلة ، فهو يقوم على هذه الحقيقة : عندما يتم تغيير المعسكر من طرف المثقفين التقليديين فان معركة في صراع الطبقات تكون قد اكتسبت .

هؤلاء المثقفون « التقليديون » ـ الذين يشتركون في كونهم لا يدينون مباشرة بمهنهــم وما لهم الى التغيرات التي تحدث في انماط علاقات الانتاج وانما الى حاجات ورغبات متجاوزه للتاريخ قليلا ـ ليس لهم كبير فضل شخصي في ان ينتقلوا هكذا من القديم الى الجديد كلما كان الجديد مكتفيا بتاسيس جديد للدولة .

غير ان الازمة آتية اليوم من كون العمال الذين يزداد عددهم اكثر فاكثر يحملون ، وبشكل واضح تقريبا ، تلك الفكرة العجيبة القائلة بانه يجب القضاء على الدولة ، فكيف يظل ممكنا في هذه الظروف ان يكون المرء مفكرا تقليديا ؟ وكيف يمكن الا يكون كذلك ؟

هذه المسالة التي ليست واحدة بالنسبة لنا وبالنسبة لزملائنا في الــدول الاشتراكيــة تتساوى مع ذلك في كونها هنا وهناك وفي كل مكان تقريبا مسالة ضخمة جدا .

فالتقنيون ، والمحامون ، وموثقو العقود ، والقادة السياسيون ، والمناضلون ، والاطر النقابية ، والفلاسفة ، والعلماء ، والمفكرون ، والصحفيون ، والاطباء ، والفنانون ، والكتاب ،